



السمين القصير والرفيع الطويل

السمين القصير ضحك بلا صوت . شاعت في وجهه ضحكة .
سمع منه الآخر نبرة سخريه لم تصدر عنه ابدا . السمين القصير
قال :

- رجل ؟ .. كرامة ؟

الرفيع الطويل علا صدره للحظة عابرة ، بنهيدة حبيسة ،
قصيرة ، أخذت لفورها ، ولم يقل شيئا .

ماسح الاحذية أقبل . طرق صندوقه بفرشاته مرتين عند
« الترابيزة » المجاورة . مر امامهما ولم يطرق صندوقه ، عاد يطرق
الصندوق بذات الدقتين اليئيمين ، عند « الترابيزة » التالية ،
ومضى يطرق الصندوق ، ثم عاد وهو يطرق . عندهما صمت . لم
يطرق . لكنه انتفت الى حذاءيهما . توقف ثانية ثم خطا مبتعدا .
السمين القصير قال له مناديا :

- تعال .

- على الحساب !

قالها ماسح الاحذية بأسى . ومضى . السمين القصير شاعت
في وجهه ذات الضحكة المصمتة . قال مقلدا :

- أنا رجل عندي كرامة !

مر الجرسون مسرعا ، يتدافع كالجمال ، الصينية على كفه ،
مسندة بابهامه ، تذهب وتجيء ، مع حركة يده . نظر اليهما ، ثم
مضى . السمين القصير قال :

- نحن مفروضان على المقهى .

الرفيع الطويل قال :

- المقهى تعود ذلك . نحن هنا مثل .. الكراسي .

السمين القصير ضحك هذه المرة . سلت يده اليمنى من جيبه .
نغزه بها في ساعده . قال :

- ولا يهيك . ستفرج .

وصفق . الرفيع الطويل قال :

- لن ياتي .

- ولو أتى . تراهن ؟

- ياتي او لا ياتي . صرنا هنا كالمهم .

السمين القصير قال :

- هذه ضربة الفن .. علينا .

الرفيع الطويل سال :

- وعليهم ؟

جلسا مع الضحى ✘ . ظالت جنسهما ، ولم يأت أحد .
يروح الجرسون امامهما ، حوبهما ، داخل المقهى ، ويجيء ، ولا
يأتي . في المقهى بضمه رواد . في ممره الممتد بطونسه اخرون ،
متناثرون حول موايد المقهى ، متجمعون حول بعضهم ، يتصفحون
الصحف بكسل ، يشربون من أبواب زجاجية ، يحدقون من وراء
الزجاج في السيقان والعمائر ، يلعبون الطاولة ، يخبثون الدومينو
الأكف ، يدخنون ، ينفثون أنفاس أنجوزة التي تكرر في الايدي ،
يرنون الى الفراغ تحت السقف العائلي ، أو مستنظيل الزرقه السماوي .
ومن داخل المقهى يسمعان أصواتا معنوية وزجاجية ، وطين موفد ،
وينسل اليهما عقب دفء ، وبحر أنفاس ، عبر المصارع الثقيله ، المفتوحة
الان ، للابواب الزجاجية .

السمين القصير ، يستريح على انكرسي بطونه ، ينلئ يظهره
على عارضه انكرسي ، ويرتكز بعجزه على حافته مقعده الخيزراني .
وجهه المدور ، العمحي ، المصفر قليلا ، يفوح خصوبة وشبفا . عيناه
تبتسمان بسخريه لا توقف ، بمكر أشل ، كيد بلا أصابع . يسداه
متسستان في جيبه سرواله ، ترنان بعيت متقطع ، على فخذيته ،
من داخل الجيبين . هميسه التي حال تون بياضه ، يندو في أقصى
اتساع له ، تحت الجاكت المفتوح . السمين القصير . قال :

- انده .

- صفق له أنت .

الرفيع الطويل قال ذلك ، وهو يحدق بعجز متونر ، فسي
الحائط الاصم المقابل ، بلا نافذة ، ولا باب . عيناه مطفانا اللمعة ،
حزيتان ، غائرتان . حاجباه كثيفان ، ناتسان ، كسقف الحائط
المقابل . وجهه المستنظيل ، داكن السمرة ، حاد الملامح ، متقلص
الفكين ، ظهره مقوس ، يضع ساقا على ساق . كفاه طويلتا الاصابع ،
متشابهتان حول ركبته . يافة قميصه عالية مسدودة حول عنقه ،
تفر فوقها تفاعه آدم . أزرار جاكته الثلاثة ، مفلقة بعناية . الرفيع
الطويل أضاف :

- أنا رجل عندي كرامة .

✘ هذه القصة « افتتاحية » أو « مدخل » لقصص أخرى .
تعبير عن تجارب مماثلة ، لتعريف الواقع الثقافي في حياتنا
العربية . تشكل في مجموعها رواية من لون خاص ، تضم عددا
من القصص القصيرة .

- وعليهم .
الرفيع الطويل اعاد وجهه الى مكانه الاول ، وقال :

- متى يأتي « هو » ؟

- سيأتي .

- متى اذن ؟

وأضاف بقلق :

- ربما يجد غيرنا . نحن كثيرون .

القصير السمين قال :

- تعتقد . من هم ؟ هل تعرفهم ؟ تعرف واحدا منهم ؟ غير ؟

لا . نحن قلة نادرة .

الرفيع الطويل قال :

- انت واهم . رأينا صف الكومبارس أمس .

السمين القصير قال :

- نحن كتاب . لا تشبهنا بهم .

الرفيع الطويل أدار وجهه للمرة الثانية ، وقال :

- متأكد ؟

السمين القصير أجاب ، والآخري يعود بوجهه الى مكانه الاول .

- حتى لوحدث . سنجد غيره .

الرفيع الطويل عاد يسأل :

- متأكد ؟ أين ؟ كيف ؟

السمين القصير أجاب :

- انظر . كل هذه الاسماء في الصحف ، والاذاعة ، والتلفزيون

والسينما ، والذين يخطبون .

الرفيع الطويل عاد يقول :

- هذا يعني أننا كالكومبارس .. كثيرون . وما خفي كان أعظم .

فهناك دائما قطع غيار .

السمين القصير ، تالق وجهه . بدا كأنه عثر على نكتة . قال :

- في هذه الحالة ، ستكون مضطرين لدفع خلو .

الرفيع الطويل أوشك أن يبتسم . لكنه أخذ يناقش ، قال بجدي :

- لمن ؟ ل .. هو .. أم لنحن ؟

السمين القصير ضحك ، وهو يقول :

- ستكون مصيبة . أن ندفع للثنتين .

الرفيع الطويل قال :

- وللمخرج .

السمين القصير قال :

- ولحجر الصفحة .

الرفيع الطويل قال :

- تقول فيها .. ذلك يحدث .

الرفيع الطويل عاد بوجهه الى مكانه .

الرفيع الطويل التفت للمرة الثالثة ، وقال :

- وان نجد .. لنحن ، بديلا عند « هو » آخر ، ولنحن عند

هذا الآخر « هو » آخر .. وهكذا دواليك .

السمين القصير والرفيع الطويل غرقا في الضحك . الضحك

انقطع فجأة ، في وقت واحد .

السمين القصير هنف بجهد بالغ ، كونه يثرأ لافة ، والرفيع

الطويل يعيد رأسه الى مكانه .

- العدد كامل . لا توجد شغف خالية . لا يوجد عمل بالصحيفة .

الرفيع الطويل أضاف اليه ، ورأسه في مكانه .

- الحياة تعتذر .

السمين القصير ، تأمل ، كرر يتأمل في أسي .

- الحياة تعتذر !! الحياة تعتذر !!

الرفيع الطويل ، لفت وجهه ، قال برقة :

- ولا يهكم .

وأضاف بقلق :

- هاهو لم يات .

السمين القصير بدا غاضبا . صفق بشدة . كرر تصفيقه .

ونادى :

- جرسون .

وأضاف :

- هكذا يفعل « هو » .

الجرسون أقبل . قال بضيق صدر :

- نعم .

الرفيع الطويل ارتعدت شفتاه . ابتلع ريقه . أدار وجهه

للجانب الآخر ، الى الشارع الواسع ، يرقب بعينيه فقط زحام

الطريق . أذناه نصنان .

السمين القصير قال متضحكا :

- صباح الخير .

الجرسون قال بوجه متجهم :

- خير . نعم .

السمين القصير تحايل . قال :

- نريد شأيا ، وبالمناسبة ، ساندوتش . لم نلفظ بعد .

الجرسون قال بذات الوجه المتجهم :

- ادفع

السمين القصير تضاحك . قال :

- البركة فيك . والحساب يجمع .

الجرسون قال :

- والدفع ؟

- فربما سندفع . قبل انظر ، على الاكثر .

الرفيع الطويل ، قال بسرعة ، دزن أن يدير وجهه :

- بعد ساعة .

السمين القصير أضاف مؤكدا :

- سيأتي « هو » . سيكون هتا .

الجرسون بدا يتفكر . السمين القصير عاجله :

- أنت رجل مجدع . أين بند مثلنا . نحن لم نتعش .

الجرسون انفرج وجهه ردا . وقال :

- حاضر . سافعل . لكن ، عندما يحضر ، اذا حضر يعني ..

السمين القصير هتف ، وأقسم :

- سيحضر . صدقنا . والله سيحضر .

وأضاف :

- نأكد . صدقنا .

الجرسون قال :

- لا تؤاخذني . لا تهربا بعد .. بعد أن يحضر .

الرفيع الطويل أدار وجهه ، وقال :

- تأكد . لن نفعل .

الجرسون ذهب . ران الصمت حتى تلاشى الحرج والخجل .

السمين القصير تنهد .

السمين القصير قال :

- رحم الله من قال : لو كان الفقر رجلا لقاتلته .

الرفيع الطويل قال :

- اذن . اقتل نفسك

السمين القصير قال :

- أو اقتلك أنت .

الرفيع الطويل قال :

- بل قل ما قاله أيضا : عجبت لجائع : كيف لا يخرج علسي

الناس شاهرا سيفه .
السمين القصير قال :

– ما ذنب الناس ؟ اجعل سيفك ل .. (هو)
الرفيع الطويل ، سائل :

– حسا لولتي النعم ؟ ومن بعده ؟ (هو) آخر ؟ ولسي نعم
غيره ؟ هل يكفي سيدي أو سيفك ؟

السمين القصير ضاق بطريقته . هتف :
– أسكت . انك تخرف .

بائع الصحف أقبل . السمين القصير مد له يده فجأة . قال :
– أعطني النسخة .

البائع لم يؤخذ . ألبائع قال :
– ستشتري ؟

السمين القصير أجابه :
– ستقرأ .

البائع قال :

– بنصف قرش ، عن – كل صحيفة ومجلة . أنت تعرف .
– أعرف . هات .

– ستدفع ؟
– يا سيدي يبقى لك . انحساب يجمع .

– مني ؟ . حين يحضر (هو) ؟
– نعم .

– ومتى يحضر ؟

السمين القصير قال مؤكدا :
– نحن معه على موعد .

البائع سل نسخة من كل مافي يده ، ووضعها على الترابيزة
بينهما ، وانصرف ، قائلا للسمين القصير :

– تذكر . صرت مدينا للمعلم .
الرفيع الطويل أجابه :

– طيب . اذهب .

البائع نظر اليه ساخرا ، بجانب عينه ، وقال منكرا وهو يتعبد:
– وعطرسه ؟؟

الرفيع الطويل قال معلقا بغضب :
– قليل الادب .

السمين القصير نان يقلب الصحف . الرفيع الطويل قال له :
– لم الصحف ؟ لتزيد الحساب ؟

السمين القصير أجاب :
– نعرف ما نشر لنا .

الرفيع الطويل قال بحدة :

– كله ينشر . أنت تعرف ذلك .
السمين القصير قال :

– طيب . نعرف ما يجري في الدنيا . لا تفضب .
الرفيع الطويل قال :

– أنت نعرفه . ما يجري فيها يجري لنا . حصاده مانحن فيه .
يقع علينا . ثم .. أخبار الامس ، هي أخبار اليوم ، هي أخبار الغد ،
وبعد الغد .

السمين القصير رمى بالصحف ، أطبقها بعصية ، وقال بغضب :
– أسكت . انك تخرف . كل شيء عندك بحساب ، بمنطلق .

قليل من البهارات يجعلك تبتلع بشهية ، حنسى ساندوتش فول ،
كله حصى .

الجرسون أقبل بوليمه انشاي والساندوتش .
الرفيع الطويل ضحك .

الجرسون قال للرفيع الطويل ضاحكا :
– عاش من شافتك تضحك .

السمين القصير أزاح الصحف جانبا ، وهو يقول للرفيع الطويل:
– كله هنا وباسمه .

الجرسون أخذ يفرغ ما على الصينية ، بينهما ، بالنصف : شاي
أمام القصير ، وشاي أمام الطويل . ساندوتش هنا ، وساندوتش
هناك . ثم ذهب ، وهو يجيب واحدا ثم يناد بعد :

– أيوه جاي .

السمين القصير بدأ يأكل .

الرفيع الطويل قال ، وهو ينظر إلى القسمة :

– يا سلام . تو نان (هو) عدلا هكذا . بالنصف بيننا وبينه .
مع أننا أثنان ، وهو واحد . مع أننا نحن الذين نتج ، وهو الذي
يوزع ، مع أننا نحن الذين نكتب ، وهو الذي يضع اسمه .. ويقبض .

السمين القصير ، قال :

– (هو) الذي يسون . وكيل اعمال يعني ..

الرفيع الطويل ، صحح له فوته متجهما ، وهو ينظر الى الطعام
ما يزال :

– وكيل ؟ نحن فعلة . عبيد . يعطينا فرشا ويأخذ مائة . يقول
لنفسه : لو أعطيتهم ما يكفي شهرا ، بل أسبوعا ، بل يومين ، لتمرودوا
لحاولوا البحث عن مخرج . الفئات بيخينا كما نحن يوم بيوم . واحيانا
يوم فقط ، ولا نراه عدة أيام . يكسرا لنظل خاضعين . يجيئنا
لنظل بحاجة اليه أبدا .

السمين القصير توفقت اللقمة في فمه . وقف ممسكا بكرسيه ،
صارخا ، واللقمة في فمه :

– أسكت . الله يلعنك . نسممني حتى على اللقمة .
الرفيع الطويل انكمش في نفسه ، قال :

– طيب . اجلس . نحن مساكين . اجلس .
السمين القصير جلس . قال أمرا :

– كل . كف عن هذه النظرة للاكل . تخاف أن تأكل ، وينتهي
الطعام ؟؟

الرفيع الطويل . ابتسم . قال معترفا :

– نعم . هذا صحيح .
وأخذ يأكل .

البائع جاء ، واسترد صحفه ، ذهب . الجرسون جاء ، ورفع
الكويين الفارفين ، والورفتين المبقعتين ، وذهب .

السمين القصير ، قال :

– نفسي في سيجارة .
الرفيع الطويل قال :

– يا أخي انلهي .

السمين القصير نظر اليه . الرفيع الطويل فهم عنه النظرة .
الندم بان على وجهه ، وصمت . السمين القصير قال :

– ما اسم (هو) ؟

الرفيع الطويل قال :

– انه ينشر مع ما نكتب ، ومع ما نذيع ، ومع ..
السمين القصير قاطعه :

– (هو) يقول انه ليس (هو) .. انه واسطة خير بيننا
وبين (هو) ..

الرفيع الطويل قال :

– تعتقد ؟

السمين القصير قال :

– (هو) قال لنا اسما آخر . ذكره لنا . آه .. يشبهه ..
ما اسمه ؟

الرفيع الطويل قال :

– لا أذكر . أذكر أنه كان يذكر لنا اسما غير الاخر ، في كل مرة .
السمين القصير قال :

– هل انت متأكد ؟ سوف أسأله ، ونحاسبه .

الرفيع الطويل قال :

– تسأله ؟ وتحاسبه ؟ أنت لا تقدر على ذلك ، ولا أنا . قد يغضب . لكنني أتساءل : لم لا تكون لنا نحن فطرة على الغضب ؟

السمين القصير قال :

– تمتد أن ذلك ممكن ؟

الرفيع الطويل قال :

– لم لا ؟ نحن بشر مثله .

السمين القصير قال :

– قد يذهب ولا يعود . يكفي أن يذهب ، فإلى ان يعود ، لن يكون لنا وجود هنا ، أو في عشة السطح .

الرفيع الطويل قال :

– وهل نحن موجودون الآن ؟ ما الفرق ؟

السمين القصير أجاب :

– الآن . نحن موجودون بالامل ، في أنه يأتي ، في أنه سيأتي .

الرفيع الطويل انتابته لحظة بوح . قال :

– كانت مدينة باهرة ، مقنعة عامرة بالاسرار والاحلام . فقلنا . عشنا في القاع ، حيث لا قناع . اتدري ؟ كل ٩٩ في المائة ، من مائة ، مصيرها الفشل . واحد فقط في المائة ، من مائة ، ينال مصير « هو » الإمل ، والاعظم .

السمين القصير ضحك ، قال :

– أو .. « هو » من الباطن .

الرفيع الطويل قال متفنيا :

– ونحن في باطن كل باطن !

السمين القصير قال :

– اسمع . انك تخرف .. وأنا أيضا .

الرفيع الطويل قال :

– حين كنت في القرية . كنت اذهب الى مصرف راكد ، تملو فيه المياه وحدها عبر مسارب أرضية ، تظل حيننا راكدة ، آسنة . يعلوها العشب . كنت اجلس . اجلس وأأمل ، عبر زهرة العفن ، حياة القاع الدودية ، والجريمية ، والطحلية . لم ؟ لا أعرف . ثم ، مع الصيف ، يجف المصرف ، ولا يبقى سوى الملح . باللورات من الملح . طبقة منها سميكة ، امد يدي اليها ، أمسها بأصبعي ، فلا اجد سوى ذرات بالغة الصغر ، كذرات الضوء التي لا تمسك ، في أشعة شمس ، تنيثق من ثقب ، في غرفة مظلمة .

السمين القصير قال :

– « هو » قال ، أن لديه أسرة من أحد عشر فردا . تصور .

احد عشر بين ولد وبنت وزوجة من طبقة راقية ، وسيارة . اذكر ؟ وأنه ربط نفسه بمستوى معيشي مرتفع ، وأنه كان مثلنا ، وأنه .. وأنه هل تصدقه ؟ أنت كدت تبكي من أجله ، وأنا .. ليس أمامنا سوى أن نصدق . لكن ماذا علينا أن نفعل لأجله ؟ أن ننقذه ؟ أنه « هو » الذي ينقذنا . فلنقل ان كلا منا ينقذ الآخر . نحن نشقى من أجله ، ولكي نعيش . وهو يشقى من أجلنا ، ولكي يعيش . لكن المؤلم لنا ، أنه « هو » يظل « هو » و « نحن » نظل « نحن » . ومن المؤكد أنه من المؤلم له ، أن يكون بحاجة الينا . هل يصرف أيضا ، انه من المؤلم لنا ، أن نظل بحاجة اليه ، بل أن نكون بهذه الحاجة اليه ؟ اسمع . نحن نخرف . بل نهذي .

الرفيع الطويل قال :

– حين خرجوا من البحر ، ناجين من أخطار البحر ، ليس أمامهم سوى الامل في النجاة الطائفة ، وفي العودة الى « ايشاكا » ، كانوا جياعا ، أشعلوا نارا . وطهروا طعاما ، وأكلوا ، وشربوا ، ثم ناموا . وحين استيقظوا ، تذكروا رفاقهم الذين ماتوا في البحر ، سقطوا في القاع ، فيكوا . اسمع . نحن أيضا نفعل ذلك . أكلنا ، ثم تذكرنا موتانا ، وما نحن نبكي . لكن الحزن أننا لم نجد فرصة ، ولو ضئيلة . لثنام قليلا . على الأقل . لنهضم الفول الذي نقتات به ، كلما وجد ، كالبهائم .

السمين القصير . أوشك أن يبكي لكن الرفيع الطويل تصاحك حتى لا يحدث ذلك . والبكاء يأتي الآن متأخرا . لذلك لا يبكي . فما يزال هناك أمل .. في أن يأتي « هو » .

الجرسون جاء ، وسأل :

– متى يأتي « هو » ؟

والمسح الاحذية جاء ، على امل في ان يمسح حذائيهما ، وسأل :

– ألم يات « هو » ؟

وبائع الصحف جاء ، وسأل :

– أين هو ؟

والرفيع الطويل قال بعد أن ذهبوا :

– تأخر « هو » .

ولم يجد السمين القصير ، بعد أن طال الصمت بينه وبين الرفيع الطويل ، وبعد أن درس جيدا وسائل الفرار ، من المهر في المقهى ، دون أن تراه عين الجرسون ، أو بائع الصحف ، أو مساح الاحذية ، سوى أن يسأل هذا الآخر ، ذلك الرفيع الطويل :

– متى يأتي « هو » ؟

سليمان قياض

(القاهرة)

من منشورات دار الآداب

شخصيات من دباب المقاومة

تأليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لاباط تاريخيين او مغلوبين على حساب الاممال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحها في مواجهة كل محاولات غزوها وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنها بطولة العقل – مهزوما او منتصرا – في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الغزاة ، او في توابيت ثقافته العلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه بهدف الى تأكيد في الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمة المؤلف

صدر حديثا

٢٥٠ ق.ل.